بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

أتحدث إن شاء الله بمناسبة ما يذكر من صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، وأنطلق من هذه المناسبة[1] لبيان أمر مهم

يوجد كلام كثير عن صلح الإمام الحسن (ع) منذ أن حدث هذا الصلح بعد شهادة أمير المؤمنين (ع) بستة أشهر وأيام قليلة، الآن عبِّر كما شئت الإمام الحسن (ع) هادن معاوية، تخلى عن الحكم، صالحه، فالأسماء ليست مهمة، منذ ذلك الحين جرى كثير من الحديث عن هذه المسألة، لأن المسألة كانت مربكة وما زالت مربكة أن الإمام الحسن (ع) كيف تنازل عن الحكم وصالح معاوية في حين أن أمير المؤمنين (ع) في بعض الكلمات المنقولة عنه أنه قال: (... فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد (ص) ...)[2] فكيف الإمام الحسن (ع) هادنه وصالحه؟

أنا لا أريد أن أدخل في هذا المجال تحدثت عن هذه المسألة في وقت سابق باختصار أبيّن أن للكفر معنيان، الأول الكفر في مقابل الإسلام وهو كفر له آثار فقهية معينة وهم فئات محددة، والثاني الكفر في مقابل الإيمان وهذا النوع من الكفر لا يتخذ منه موقف محدد وإنما يعرفه المرء كمعلم من معالم الطريق إلى الله عز وجل ليتجنبه الإنسان، ويوجد هنالك كتاب مفصل في الجزء الثاني من أصول الكافي باسم كتاب الإيمان والكفر، يذكر فيه خصالا هذه الخصال تسمى بخصال الكفر وخصالا أخرى في مقابلها تسمى بخصال الإيمان، وأساس هذه الخصال هو الاعتقاد بإمامة الأئمة (ع) أو عدم الاعتقاد بها، وقد بيّنت في وقت سابق أن الكفر مقابل الإيمان ماذا يعني، في رواياتنا يوجد تركيز على أنه لا يمكن أن يحصل الإيمان إلا بولاية الأئمة، ويعتبر عدم الاعتقاد بهم كفرا بالمعنى الثاني وهو الكفر في مقابل الإيمان، وهذا ليس فقط راجعا للأشخاص الذين لا يعتقدون بالأئمة (ع) ولا يلتزمون بفقه الأئمة (ع) بل حتى الشخص الذي حسب الظاهر شيعي لكن إيمانه لم يمر عبر إمامتهم، لا يعرفهم، بمعنى أنه لا يعرف طريقتهم وسبيلهم، هذا

---

[1] تحدث به السيد محمد علي الباقري حفظه الله يوم الجمعة بعد صلاة العصر بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٦ هـ وقد تطوّع بعض الأشخاص بطباعته مع شيء من التصرف نتيجة تحويل الحديث من مسموع إلى مقروء وقد لا يخلو من أخطاء غير مقصودة

[2] نهج البلاغة (الخطبة: ٤٣)

الشخص يكون بهذا المعنى من الكفر يعني مُلغيا وساترا شيئا أساسيا في نفسه وهو النزعة إلى الكون مع الإمام إلى الائتمام بالإمام، هذا بينته في وقت سابق

النبي (ص) أسس أمة، في هذه الأمة جسّد بنفسه الشريفة أمرين، الأمر الأول تبليغ الشريعة، وأساس الشريعة هو كتاب الله عز وجل، والأمر الثاني هو الولاية (الإمامة)، الإنسان إذا أراد أن يعبد الله عز وجل ويتقرب إليه وأن يعرف دين الله بحاجة إلى نبي يبين له دين الله عز وجل، إما يبيّنها بتفاصيلها أو يعيّن من يبينها، وكذلك كان النبي (ص) يمارس ولايته بشكل طبيعي، وهما الثقلان اللذان أشار إليهما (ص) في خطبة الغدير وفي مناسبات مختلفة أخرى

في تلك الأمة توفر هذان العنصران الرئيسيان للإيمان، يعني لا يمكن للشخص أن يؤمن إلا بمعرفة الدين والولاية، والولاية لا تحصل إلا بالمعرفة بطبيعة الحال، وهذا كان قد توفر في عهد النبي (ص)، والشخص المهتم ينطرح له هذا السؤال: هل ذلك الوضع الذي حصل في عهد النبي (ص) كان يفترض أن يتوسع ويستوعب العالم في ذلك الحين؟ هل كان هذا هو المخطط له؟ أو هكذا دعنا نقول، لماذا لم يستمر ذلك الوضع؟ لا أظن أن أحدا يستطيع أن يدعي أن ذلك الوضع استمر، المعروف أن ذلك الوضع تغيّر بعد وفاة رسول الله (ص)، الآخرون يحاولون أن يقولوا أن الوضع تغير بعد موت الخلفاء، وهنالك محاولات أخرى بأن الوضع استمر باستمرار الخلافة، لكن على أي حال لا أحد يستطيع أن يدعي بأن ذلك الوضع استمر ولِمَ لمْ يستمر؟ فالسؤال هنا: هل ذلك الوضع الذي أوجده النبي(ص) كان مؤهلا لأن يستمر؟ هل ذلك الوضع وُجد ليستمر أم ماذا؟

أنا أشير فقط مجرد إشارات لما أعتقد أنك إذا بحثت وكنت مهتما سوف تصل إليها كمعالم في الطريق، فإذن أنت لابد أن تتعقل المسألة وتبحثها، وهنالك حسب تصوري سوف ينفعك ما أقوله وإلا لا ينفعك، هذا السؤال أطرحه: هل كان ذلك الوضع مؤهلا ليستمر؟ أم أن ذلك الوضع وُجد فقط كمنطلق ليخرج الله خير أمة للناس لتتيسّر من ذلك الوضع الحركة الإيمانية التي سوف أشير إليها

هل النبي (ص) كان يبيّن للناس أحكام الدين وكتاب الله عزّ وجل فقط من دون أن يمارس الولاية؟ من دون أن يُلبي –بنفسه الشريفة– هذه الحاجة الرئيسية التي هي أهم الحاجات الإنسانية وهي حاجة الإنسان إلى من يتولى أمره، يحبه يهتم فيه ويكون عارفا بالدرب ويهديه إليه ويراعيه، هنا الإنسان يجد

الطمأنينة والأمان والراحة وهذا هو باب الأشياء، الإنسان غير المطمئن غير الآمن مستحيل يقدر على أن يتعقل أو يعتقد، لا فقط (خُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفاً)[٣]، بل لأن الإنسان خلق ليتولى أحد أمره، هذه خلقة الإنسان وطبيعته، مثلا شخص يعطش يبحث عن ماء ليشرب حينما يجده يشعر براحه بطمأنينة، العدل كذلك وهو صفة رئيسية من صفات الدين وُصِف بالماء حينما يجده الظمآن يشعر براحة بطمأنينة، الآن يستطيع أن يتصرف يستطيع أن يتعقل يستطيع أن يفكر، هذا كان المفروض أن يحصل

في عهد النبي (ص) طريق الإيمان اتضح وتجسّد بالواقع، لو نفترض بأن النبي (ص) كان يبين في بداية الأمر أنه أيها الناس لابد من الإيمان والإنسان لا يستطيع أن يؤمن إلا بأمرين هما الكتاب والولاية (الإمامة)، هل هذا الكلام كان ينفع؟ هل كان يلفت الأنظار إلى شيء؟ أم بعد أن مورست الولاية في عهد النبي (ص) وأصبح النبي (ص) بشكل واقعي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فهنالك حينما يجمع الناس فيذكرهم بالولاية التي كانوا غافلين عنها ومن أراد أن يتذكر عرفها، هذه النعمة هذا الأمن هذا الإيمان هذا السمو هذا العز هذا الشموخ موقع الشهادة على الناس لا يحصل إلا بولايته التي كان يجسدها (ص) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[٤] هذا الأمر وهذا المقام حصل له (ص)

الآن إذا افترضنا أن شخصا لم يجرب شرب الماء وقيل له إذا أنت شربت الماء سوف ترتوي، هل يستطيع هذا الشخص أن يعرف ذلك، أما إذا شخص كان عطشانا وشرب الماء وارتوى فقيل له بأن هذا الارتواء وهذه الطمأنينة كانت نتاج شربك للماء، ألا يوجد فرق بين هذا وذاك؟

لم يكن الوضع الذي أسسه النبي (ص) مؤهلا لأن يستمر بنفس الصورة، لا لأن الله عز وجل لم يتم دينه بل لأن مقومات الاستمرار لم تكن موجودة في الواقع، الاستمرار بنفس الصورة يعني كحكم كمجتمع له حدود واضحة خارج هذه الحدود يعتبر كفرا وداخله إسلام وإيمان، هذا الوضع ما كان مؤهلا ليستمر، لا لأن دين الله عز وجل قاصر بل لقصور في الوضع، وسوف تتهيأ الأرضية لتكوّن هذه الأمة

[٣] (النساء:٢٨)

[٤] (البقرة: ١٤٣)

النموذج بصورة شاملة كاملة في عهد الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف وهذا هو الوضع الذي سوف يستمر

تبيّن أن هنالك أمران ضروريان للإيمان، الإيمان أصبح ميسورا كما في الرواية (ولو لم يكن من خلقي في الأرض فيما بين المشرق والمغرب إلا مؤمن واحد مع إمام عادل -إمام يعدل لا عادل كإمام جماعة- **لاستغنيت بعبادتهما عن جميع ما خلقت في أرضي ولقامت سبع سماوات وأرضين بهما ولجعلت لهما من إيمانهما أنسا لا يحتاجان إلى أنس سواهما)**[٥] **وهذا حصل بناءا على ذلك الأساس الذي حصل في عهد النبي (ص) والذي يؤهلك لتعرف الكتاب وتعرف الإمام فتتمسك به في أي ظرف ولا تحتاج إلى أن يكون هنالك حكم كحكم النبي (ص)، وضع كوضع عهد النبي (ص) أو عهد كعهد أمير المؤمنين (ع)، هنا بإمكانك أن تكون مؤمنا**

أما لو كان الأمر مرتبطا باستمرارية عهد النبي (ص) فيكون الإيمان غير ميسور، والروايات المروية عن رسول الله (ص) وفي القرآن الكريم توجد إشارة (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا)[٦] **وفي روايات عن النبي (ص) مثلا (كيف بكم إذا فسدت نساءكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر فقيل له ويكون ذلك يا رسول الله فقال وشر من ذلك)**[٧]**، هذه الروايات تشير إلى أن النبي (ص) كان يعلم ويهيئ الناس على أن هذا الوضع سوف لا يستمر**

كانت رسالة ذلك الوضع الذي حصل في عهد النبي (ص) هو تجسيد هذين الأمرين اللذان ذكرناهما، ولذلك كان أمير المؤمنين (ع) يرفض الخلافة بعد خمسة وعشرين سنة من ذلك التاريخ لأن مقوّمات تكوين الأمة لم تكن موجودة، حسب هذا الفرض فإن ذلك الوضع كانت رسالته فقط هي أن نعرف كيف يُؤَمْن والإيمان كيف يحصل

---

[٥] الكافي (٢/٣٥٠)

[٦] (آل عمران: ١٤٤)

[٧] الكافي (٥/٥٩)

لو صح هذا الفرض الذي قلت أن أمير المؤمنين (ع) أجبر على الخلافة (لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز)[٨]، فلو أن الإنسان كان يبني على هذا وكان سيتعامل مع عهد النبي (ص) ومحاولات أمير المؤمنين (ع) كمنطلق كمثال للتدين الميسور

أما لو لم يتعامل الإنسان من هذا الباب فمن الطبيعي حينما صالح الإمام الحسن (ع) معاوية، فإن كثيرين تصوروا أن هذا انقلاب وإذلال للمؤمنين في هذا الصلح وكانوا يجدون فيه تنازلا وتخليا عن شيء، بينما أن ذلك الباب كان مسدودا ولم تكن الأرضية الصالحة متوفرة

فبناءا على هذا، نستطيع أن نفهم كثيرا من الروايات منها عن الإمام الباقر (ع) (والله للذي صنعه الحسن بن علي (ع) –يعني الصلح–كان خيرا لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس)[٩] لولا هذا ماذا كان يحصل؟ لو الدين هو فقط الذي حصل في عهد النبي (ص) الآن نحاول أن نمده نقفز به إلى عهد أمير المؤمنين (ع) فقط ماذا كان وضعنا؟ ماذا كان وضعي ووضعك؟ هل كان من الممكن أن نجد الطريق أمامنا مفتوحا، هذا الذي أردت أن أقوله لك وأرجو أن يجعل الله فيه نفعا وفائدة، والحمد لله رب العالمين

[٨] نهج البلاغة (الخطبة ٣)

[٩] الكافي (٣٣٠/٨)